

الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ

نَاصِرُ السُّنَّةِ .. وَوَاضِعُ الْأُصُولِ

عبد الحلیم الجندي

الامام الشافعي

ناصر السنة .. وواضع الأصول

وَدَى أَنْ جَمِيعَ الْخَلْقِ يَعْلَمُونَ كَتَبِي
وَلَا يَنْسِبُونَ إِلَيَّ مِنْهَا حَرْفًا

الشافعي

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

في هذا الكتاب صورة للظاهرة الإنسانية والعلمية التي تجلت للعالم الإسلامي على رأس المائة الثانية للهجرة : محمد بن إدريس الشافعي .

وهو متابعة لدراسات بدأت والحروب العالمية الثانية تدور ، وجيوش العدو تحتل الوطن العربي ، والمسلمون يتداعون إلى الحطة المثلى بالرجوع إلى ينابيعهم الحقيقية في مفاخر الإسلام . وكان البدء « بأبي حنيفة بطل الحرية والتسامح » بادرة صالحة . تفضل بعدها عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين ، في تعليق له ، فدعا المؤلف ليتفرغ للدرس الشافعي ، لما له من صلة بمصر . والحق أن كثيراً من جذاذات الكتاب الحالي قد أعدت منذئذ ، لكن صوارف العمل العام أخرت تأليفه حتى قدر له الظهور في ميغاده . وفي هذه الأثناء جرت إرادة السماء بتطور عظيم لحساب الأمة الإسلامية يؤذن بازدهار الأمل . كانت الدول العربية بضع دول ، فأصبحت بضع عشرة . وكان تعداد الدول الإسلامية المستقلة عشرات الملايين ، فأضحى مئات الملايين . وفي طريق الاستقلال ملايين أخرى . وكانت الشعوب العربية أشتاتاً ، فأصبحت جميعاً . تتنادى بالوحدة . وكانت اللغات الأجنبية تزحم اللسان العربي في معاقله ، فخلص اللسان العربي لنويه ، وأمسى لغة رسمية تدور حول الأرض في المؤتمرات العالمية . ومن اللغة العربية ، والعروبة ، ومن أصول الإسلام في الكتاب والسنة ، تتألف نفس الإمام الشافعي ، وشخصه ، وفقهه .

والشافعي لا يتقدم لقرائه كأبي حنيفة في موكب الأمل وحده ، ولكنه يتقدم في مواكب النصر الذي لاحت بشائره .

ولم يك مصادفة ، أن نجد نصف القرن الذي دوى فيه صوته ، أزهى عصور الأمة الإسلامية بعد أيام النبوة . وأن يشمل الازدهار وجوه الحضارة كافة ، علمية

كانت أو سياسية أو دنيوية . فالإسلام يفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، ليفضوا مغالقات الطبيعة ، ويكونوا طلائع التقدم ، فصنعوا . وسلموا أوربة كشفهم في عشرة قرون معدومة القرنين . فكانت أساساً للحضارة العالمية المعاصرة .

وتلاقت في نصف القرن العظيم أسماء أو أشخاص أئمة الفقه الأربعة والرواد العالمين في الرياضيات العالية والعلوم الطبيعية ، جابر بن حيان والخوارزمي والكندي ، يغشون بلاطاً يمسك بكرة الأرض . يتألق فيه الرشيد وهو عالم وشاعر ، وابنه المأمون وهو فقيه وفيلسوف . في حين كان شارلمان (إمبراطور أوربة) أمياً لا يقرأ ولا يكتب ! فحضارة الإسلام كينبوعها في الكتاب والسنة حضارة إنسانية وفكرية – أما الحضارة الأخرى فأصوبها في الوثنية الرومانية والإغريقية ، تنغيا بلوغ القوة المادية في الحياة الدنيا .

وللتاريخ العالمي لغة فصحي لإظهار الحقائق . بتكرار الوقائع واطراد النتائج . ومنها أن الأمة الإسلامية كلما أظلتها وحدة صنعت معجزة . وكثلتها الأمة النواة لها « أمة العرب » . انتصرت جيوشها على الصليبيين مجتمعين في حطين سنة ١١٨٧ ، ولم تمض بضع عشرات من السنين حتى صمدت جيوش أوربة من الغرب سنة ١٢٥٠ ، وردت جيوش التتار من الشرق في سنة ١٢٦٠ ! فحمت نصفى كرة الأرض ، في سنوات عشر ! وصدق الله قوله ووعدته ، أظهر الإسلام على الدين كله ، وجعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وإنما هي خير الأمم بشريعتها .

* * *

وكان من فضل الله عليها أن وهبها محمد بن إدريس الشافعى ، وجمع في شخصه خصائص البطولة العربية ، وفي فقهه مراكز القوة التى ينطلق منها المسلمون فيبدون منتصرين . . . وهى القرآن والسنة واللغة العربية والعروبة ووحدة الفكر .

والكتابة عنه تعلق بأسباب الانتصار . وناهيك به إماماً . ذرى الدنيا بدايات خطوه . والقيم العليا أبجديات فكره . وليدأ ، وتلميذأ ، وأستاذأ ، وإمامأ . حتى إذا بلغ مبلغه وضع الميزان العلمى للأمة . فبايعته على أنه « ناصر السنة » الذى تتمثل في فقهه أصول الإسلام . وكبرى خصائص العرب .

وفى هذا الكتاب مزاجية بين ألوان حاولنا أن نرسم بها صورة تقريبية لبطل . ودعوة لدراسات جديدة . فى هذا العالم المتراعى الأطراف من شخصية الإمام الشافعى وفقهه ولغته .

البَابُ الْأَوَّلُ

مع الرشيد

« اللهم اهد قريشاً فإن عالمها
يملأ طباق الأرض علماً »
« حديث شريف »

الفصل الأول

مع الرشيد

كان الرشيد في الرقة عندما كتب له قائد من قواده في اليمن يخوفه من نفر من العلوية بينهم رجل يقال له « محمد بن إدريس الشافعي » يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك .

وأمر الرشيد أن يحشر المتهمون ، من أقصى الجنوب وأقصى الغرب ، إليه في أقصى الشمال ، وأقصى الشرق ، من شبه جزيرة العرب . واستبد به الهم المقيم المقعد . فلا سياسة التسامح التي استنها مذ ولي الخلافة قد ألقت قلوبهم ففأوا إلى السكينة والطمأنينة ، يوم أجرى على الذين كانوا منهم ببغداد ديم فضله وسرحهم بإحسان إلى المدينة ، ولا أرهبتهم سياسة البطش التي عمد إليها معهم ومع الخوارج في بضعة عشر عاماً مضت . ولا سكنت ثائرة غضبهم سياسة المراقبة ثم الفتك التي اتبعها مع زعيمهم موسى بن جعفر الكاظم منذ عام فقط ! لا التسامح ولا البطش ولا الانباه ولا التغافل .. ولا ما صنعه أبائهم وأجداده بأبائهم من كل ذلك ، بمزحزحهم من دعواهم أن الخلافة لأبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بدلا من الرشيد وآبائه خلفاء بني العباس ! كان الشافعي على عمل باليمن ولم تكن جريرته عند من سعوا به إلا أخذه بأسباب العدل والعلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتفاع عن ملق المحكومين والميل بالهوى إلى طائفة دون أخرى . قال : « ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن . وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلوماً غشوماً . وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه الظلم » .

وقال : « كنت على عمل باليمن فاجتهدت في الخير والبعد عن الشر .. »

وقال : « ثم وليت نجران وبها بنو الحارث بن عبد المطلب وموالى ثقيف . وكان الولي إذ أتاهم صانعوه . فأرادوني على نحو ذلك فلم يجدوا ذلك عندي . وتظلم عندي ناس كثير

فجمعتهم وقلت : اجمعوا لى سبعة يكون من عدلوه عدلا ، ومن جرحوه مجروحاً . ففعلوا . وجلست وأمرت بتقديم الخصوم ، وأجلست السبعة حولي فإذا شهد الشاهد التفت إليهم فعملت بتعديلهم أو تجريحهم . ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلّامات . فلما انتهيت جعلت أحكم وأسجل . فلما رأوا ذلك قالوا هذه الضياع ليست لنا وإنما هي لمنصور ابن المهدي ، فقلت للكاتب : اكتب : وأقر المذكور أن الضيعة التي حكمت عليه فيها ليست له ، وإنما هي لمنصور ، ومنصور باق على حجته فيها ، إن كانت قال . فاجتمعوا وخرجوا إلى مكة ، وعملوا في أمري حتى حملت إلى العراق . . .

هذه الكلمات القليلة على وجازتها ، كالعدسات المكبرة على دقتها ، تفتح أعيننا على رجل في ثلاثيناته يعمل لوال في رفع المظالم فيصنع صنيعاً غير عادى ، في أمور شتى من الفقه والقضاء منها :

أنه لا يتدلّى إلى مخالطة أصحاب المظالم ، ليداهنوه ويدلسوا عليه . فالعدل في الإسلام كالتوحيد صفة من صفات الخالق سبحانه . وهو أساس قيام الدولة ، وليس مجرد إصلاح في الحكم أو إحسان في العمل .

وأنه يعقد مجالس القضاء علنية على أعين الجمهور ، ويحيط نفسه بثلة من أعوان القضاء يزكون الشهود ، أو يشهدون على الشهود ، فيجعل صدق الشهادة مسئولية أهل الصلاح في الجماعة . ويجعل على الحاكم مسئولية الاستنباط والتجريح والحكم .

وأنه يضع المبادئ الكبيرة في القضايا الكبيرة ترى ، دروساً للأجيال اللاحقة . فلا يعطل القضاء بمحال الألد الخصم ، ويأخذ الخصوم بأقاريهم . ويعتبر الإقرار حجة قاصرة على المقر . والأحكام نسبية بين الخصوم فيها لا تتعدى إلى الغير . ويحفظ غيبة الغائب ، فيذره وشأنه حتى يدعى بحقه ويدلى بحجته — إن كانت قال — كما عبر ذلك التعبير الواضح المختصر .. كأنه حبات يتحدر . ف وراء هذه الكلمات نظريات عدة في نظم المرافعات ، لم تصبح من المسلمات في الحضارة الأوروبية إلا في القرن العشرين ... ! وهو لا يصدر الأحكام فرادى قضية ، قضية ، بل يسمع الظلّامات كافة ، ثم يأخذ في إصدار الأحكام ، في آخر الجلسة ، ثم يسجل الأحكام من فوره .

وكأنما القارئ لهذه العبارات يقرأ تلخيصاً مشرقاً مؤلفاً لمبادئ قانونية في أحدث للقضايا العصرية . . تسكر البصر بأسلوبها السهل الممتع المعبر .

ولم يك بدعاً ؛ بل كان من طبائع الأشياء ، أن نرى المبطلين غضاباً مبرطمين ، أو خراصين يتمضمضون لحم القضية ، أو أعداء لمن ولى الإحكام . هذا إن عدل . أو يمكرون المكر الكبّار ، فيدبر بنو عبد المدان للشاقى ما قُرف به من اتهام . وكانوا قوة في نجران ، مذ استجاب بنو الحارث لخالد بن الوليد إذ بعثه النبي في سرية يدعوهم للإسلام ، وكتب إليه « بشرهم وأنذرهم وأقبل ومعك وفدهم » . فقدم في وفدهم يزيد بن عبد المدان وعبد الله بن عبد المدان في ربيع الأول سنة عشر ، وأجازهم النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم انصرفوا في بقية شوال .

* * *

كانت خلافة الرشيد أعظم ما عرفته دولة في العصور الوسطى . . وكان قد أوّى من كل شيء سبباً : الفروسية المثلّى إلى جوار النفس الشاعرة ، والبراعة في شئون السياسة والحكم والحرب إلى جوار التقى والزرع ، والبذخ والفخامة إلى جوار الصرامة والحزم ، والاهتمام الأعظم بالعلم الإسلامى ومعه اهتمامه بترجمة علوم العالم من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية والقبطية ، لتنتقل علوم العرب وعلوم الأقدمين معها فيما بعد إلى أوربة مترجمة من العربية ، فتبدأ بها نهضة أوربة المعاصرة . غزا الروم اثنتى عشرة مرة في حكمه الذى دام ثلاثة وعشرين عاماً . وسير جيوشه إلى أنقرة وأنطاكية وطرسوس والبسفور في الشمال . وقاد جيوش أبيه إلى القسطنطينية سنة ١٦٥ وهو في السادسة عشرة . أما في الجنوب فكان نور الإسلام قد نفذ إلى قلب أفريقيا . وأما في الشرق فكانت أواسط آسيا قد دانت للعرب منذ قرن . وأما في الغرب فكان جنوب أوربة الشرقى مدعناً للرشيد يتلمس رضاه ، في حين كان جنوبها الغربى حتى شواطئ المحيط الأطلسى في يد المسلمين بالأندلس ، بعد إذ انكفأت جيوشهم راجعة من شمال فرنسا . وكانت السفن العربية تتمخر في البحار عند موانئ الصين من زمان .

كانت الإمبراطورة « لايرين » في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وشعبها يدفعون له الجزية سبعين ألف دينار سنوياً وهم صاغرون . وكانت هداياه وسفاراته إلى إمبراطور أوربة « شارلمان » حديث العالم .

وفي حين كانت قرى الإمبراطورية الإسلامية من المحيط الأطلسى حتى الهند تعج بأصوات العلماء والمتعلمين في شئون الدنيا والدين . . كان « شارلمان » أمياً لا يقرأ ولا يكتب !

كان الرشيد مديد القامة أبيض وسيم الطلعة - مسمناً جميلاً - في الخامسة والثلاثين من عمره ، وفي الثانية عشرة من خلافته ، شديد العارضة باده العقل . يناظر العلماء ويحضر مناظراتهم . ويقرض الشعر ، ويرويه ، هو وزوجه وأخواته وجواريه . تكانبه زوجه وبنت عمه ، زبيدة ، في غزواته بنظيمها من القصائد الطوال ! أستاذه قاضي القضاة أبو يوسف وقاضيه محمد بن الحسن ، وهو يستمع إليهما وإلى مالك بن أنس .. في سفارته جابر بن حيان وفي نيدامته الأصمعي ، وفي دولته الخوارزمي والكندي ، في طريقهما إلى بلاط ولده المأمون ، ليحدثوا أعظم الأثر في الحضارة العلمية العالمية .

ومن بين شعرائه أبو العتاهية وأبونواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة ، ومسلم بن الوليد والحسن بن الضحاك . وفي عصره الخليل بن أحمد والقراء والأخفش . أما أولاده فن معلمهم الكسائي صاحب إحدى القراءات ، وإمام اللغة الذي يتسابق إلى تقديم خفيّه إليه ، تلميذاه الأمين والمأمون . . ولما عهد الرشيد .

وما تزال عين زبيدة تسيّ مكة المكرمة وتحمل اسم زوجه التي أنفقت في إحدى حجاتها ألفي ألف دينار . وكان في قصرها مائة جارية يقرآن القرآن .

وكان يحج عاماً ويغزو عاماً . . ويحدد شاعره مواضع لقائه بقوله :

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور

يصلّي في اليوم مائة ركعة منذ حدائنه الباكّة - وحج ماشياً ، ولم يحج خليفة قبله ماشياً . . ! وإذا حج أحج معه مائة من العلماء وأبنائهم . وكان يتصدق في كل يوم من ماله بألف درهم .

كان ينتقل في بلاد الإمبراطورية الإسلامية فينتقل معه الرواة والعلماء . وفي غزاة من الغزوات مات محمد بن الحسن والكسائي سنة ١٨٩ ، في بلاطه بقرية رنبويه بالري فقال : دفنت الفقه والعريه بالري .

روى الأصمعي : « لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لي : هل حملت معك شيئاً من كتبك ؟ قلت : نعم حملت منها ما خف حمله . . ثمانية عشر صندوقاً . وقال : هذا لما خففت فلو ثقلت كم كنت حملت ؟ »

أما بغداد فيسكنها وقتئذ مليونان ، وتعالى فيها القصور ، وتجري إليها التجارة من

أقصى الأرض ، في شرق آسيا أو وسط أوربة . وأما الضرائب فيجبى منها اثنان وسبعون مليون دينار في العام ما عدا الضرائب العينية التي تؤخذ مما تنتج الأرض .

كان يستلقى على ظهره ويقول للسحابة المارة : اذهبي حيث شئت يأتني خراجك . . والأرزاق دارة على الناس . والشعب ملتئم ، والشمل منتظم ، والقلوب وادعة .

لكن هذا الخليفة الذي يزدهى به التاريخ في الورع والعلم والشجاعة والسياسة والفنون والرفاهة ، كان ابن آباءه الحزم والحسم دفاعاً عن دولته ، وسيكون في ذلك أيضاً أباً لأبنائه . . بدأت الدولة العباسية بأبي العباس السفاح وكان ذلك وصفه لما صنعه في سبيل الدولة . . استأمنه سليمان بن هشام وأبناءؤه في نحو ثمانين رجلاً من بني أمية فأمنهم ثم أنزل بهم صعقاته بين من سفك دمهم . وتلاه مؤسس الدولة الحقيقي أخوه الأصغر أبو جعفر — جد الرشيد — وكان عالماً عادلاً زاهداً من بناء الدول : أنفذ أبا مسلم الخراساني إلى عمه عبد الله بن علي بن العباس عندما خرج على الدولة فهزمه ، فلما استسلم حبسه أبو جعفر ثم قتله . فلما خاف أبا مسلم على الدولة دعاها إلى مجلسه ، وأمر به عبيده فقتلوه .

ومن قبل ذلك بسنوات قليلات كان دعاة الدولة الجديدة يدعون سرّاً لبني هاشم ضد بني أمية . فلما أدالوها سرقوا الدولة الجديدة من بني عمومته — بني علي — وأعملوا السيوف فيهم . وقتلت جيوش أبي جعفر العلويين الخارجين على الدولة شرقتة . ومنهم عيسى بن زيد ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (النفس الزكية) . . قتل قريباً من المدينة وطيف برأسه في طبق أبيض ! وهو الذي كان دعاة العباسية أنفسهم يدعون له من قبل . ثم قتل أخوه إبراهيم بالقرب من الكوفة . . وحبس أبو جعفر أباهما فأعماهما ومات أبوهما في سجنه .

ولما ولي الحكم ابنه المهدي أبو الرشيد ، كان مضرب المثل في العدل والتقوى ، حافظاً للقرآن والسنة ، ومع ذلك قبض على وزيره يعقوب بن داود زماناً حتى أصابه العمى لأنه سلمه علوياً لقتله فأطلقه .

وكان لوزيره معاوية بن يسار ابن تزندق — والزنادقة كفار أعداء الدولة — فدعا الخليفة الوالد وولده . سأله عن شيء من القرآن فلم يتمكن من تلاوة بعض الآيات . قال المهدي : ألم تخبرني أن ابنك حفظ القرآن ؟ قال : بلى ولكن فارقت منذ مدة فنسيه . قال المهدي قم فتقرب إلى الله بدمه . . فقام الأب . . فعرس . . ووقع . . وارتعد . فأمر

المهدى بعض الحضور بقتل الزنديق فضربت عنقه .

وفي سنة ١٦٩ قتل الهادي — أخو الرشيد — الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قريباً من موضع يقال له فخ بين مكة والمدينة . وقُتل الحسن بن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) . وهرب إدريس بن عبد الله بن الحسن (أخو إبراهيم ومحمد النفس الزكية) إلى المغرب ليقم دولة الأدارسة . ويقال إن الرشيد بعث إليه من دس له السم في طنجة في المغرب .

وبعد عامين في سنة ١٨٦ سيجى دور الرشيد مع الأخ الرابع للنفس الزكية يحيى بن عبد الله . وكان قد خرج عليه من سنوات ، فأنفذ إليه ثمانين ألفاً من المحاربين وأعطاه عهداً حتى سلم نفسه ثم نقض العهد ، بعد استفتاء العلماء . فمنهم من أيد الرشيد كأبي البختری ، ومنهم من أيد العهد كمحمد بن الحسن ، فحبس يحيى . . وضيق عليه حتى مات في حبسه . . شنشنة يعرفها التاريخ عن جده أبي جعفر يوم نقض العهد ليزيد بن أبي هبيرة سنة ١٣٢ من أجل الدولة بعد أن استشار العلماء مثله وقتله .

ومنذ عام واحد — سنة ١٨٣ — كانت نهاية الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق . . وشى به الواشون فقُبض عليه في المدينة وحبس في بغداد ودس إليه من قتله قتلاً خفياً ، وأدخل عليه شهود يشهدون أنه مات حتف أنفه .

وستثبت الأيام صحة مخاوف الرشيد على دولته من العلويين . فلسوف يصبح ابنه المأمون شيعياً . ويولى عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم نفسه ، ويدفنه إلى جوار الرشيد . . وتجري إرادة السماء على الرشيد في بيته وقبره وعلى يد ابن من أبنائه هو أعظم الخلفاء بعده !

وستبقى أسطورة المهدي المنتظر ظهوره — من أبناء علي — مشغلة للتاريخ الإسلامي . وتبقى فكرة الدولة الشيعية لإرهاصات في ضمير الأمة لتصير حقائق هنا وهناك . فتقوم عليها دول عدة . منها دولة عظمى هي الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ بالخزرج وفي سنة ٣٥٨ بمصر . وتضمحل أمامها سلطة الدولة العباسية . وستقوم لهم دولة بنى بويه بالعراق ، ودولة الأدارسة بأفريقية ، ودولة بنى تومرت ، والدولة الحفصية ، ودولة الزيدية في اليمن ، ودولة بطبرستان والديلم . !

ولم يكن الخوارج أقل متعبة للرشيد ولا هو كان أقل فتكاً بهم . . لم يكذب على

الخلافة حتى خرج عليه «الصحيح» بالجزيرة فسير إليه من قتله سنة ١٧١ .
وفي سنة ١٧٨ خرج الوليد بن طريف الشاري فقتل .

* * *

كل هؤلاء كانوا من الأعداء ، فما بالك بما صنعه من أجل دولته مع الأولياء .
كان يحيى بن خالد بن برمك والياً على أرمينية ، وأستاذاً عهد إليه «المهدى»
في تربية الرشيد . فلما أفضت الخلافة إليه صار يحيى وأبناؤه كل شيء .
فوض إليه الحكم وولى ابنه جعفرأ على مصر ثم خراسان ، واستوزر ابنه الفضل -
وكانت الخيزران أم الرشيد قد أرضعت الفضل ، كما أرضعت أم الفضل الرشيد ذاته .

ولبت البرامكة الثلاثة يديرون الدولة سبعة عشر عاماً .
وذات ليلة - بعد أعوام ثلاثة من محاكمة الشافعي - أصدر الرشيد أمره بإعدام
جعفر . فسقط رأسه أمام خيمة الرشيد . . وقبض على إخوته الفضل ومحمد وخالد . . .
وعلى أبيه يحيى بن خالد . . .

ويشير الرشيد إلى صريع بطشه ، جعفر ، وكأنما قد قلبه من الصخر . . فينشد :
من لم يؤدبه الحمير ل ففى عقوبته صلاحه

وفرق البرد فى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم . فوجد لهم مما حباهم اثني عشر
ألف ألف ومن سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستائة ألف وستة وأربعين ألفاً ! وأمر
بجثة جعفر فنصبت على رأس الجسر ، يراها الرشيد ، فتخضل عيناه بالدمع ، ويعرف
الجهش فى صدره ، ومع ذلك يقول : من يرد غير مائه يصدر بمثل دائه . . ثم يأمر
بالنضاحات فينضح عليها حتى تحترق . . !

ولما طال حبس يحيى جاءته زوجته يحيى - أمه من الرضاع - قال الحاجب :
ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد . . فلما
دخلت قام الرشيد محتفياً بها ، وأكب على تقبيل رأسها - قالت : يا أمير المؤمنين . .
لقد ريبتك وأخذت لك الأمان من دهرى . ظئرك يحيى وأبوك بعد أيبك . . ! ومع
ذلك يرد الرشيد : قدر سبق . وقضاء حُم . وغضب من الله نزل .

وتعالت المناجاة . فكان يلوذ بذكر الله . ويقول : «لله الأمر من قبل ومن بعد» .
فلما رآته لاذ عن مطلبها أخرجت له حقاً وضعته بين يديه ، وأخرجت منه حذاءه وحفضه

وذؤابته وثناياه وقد غمس ذلك بمسلك نثير .

قالت : استشفع إليك وأستعين بالله وبما صار معى من كريم جسدك . .
فأخذ الرشيد جميع ذلك فلقمه ثم استعبر وبكى . . وطال استرحامها . . فعاد يقول لها
« يا أم الرشيد أمانى من الحق مثل الذى لهم » ؟ يقصد زوجها وأولادها .

قالت : إنك لأعز على وهم أحب إلى . .

وقامت عنه . . فبقي مبهوتاً ما يحير لفظه .

ومات يحيى بعد ثلاث سنين فى سجنه سنة ١٩٠ . ومات ابنه الفضل على إثره
سجيناً هو الآخر سنة ١٩٢ .

هكذا كانت الإنسانية العالية تستحيل قسوة ضارية كلما كانت الدولة محل هجوم
عليها أو دفاع عنها من الرشيد .

* * *

حشر محمد بن إدريس الشافعى مع العلويين كما يحشر المتهمون ، على قدميه
أو فوق قتب بعير ، مغلوله أيديهم إلى أعناقهم . فلم يجدوا الرشيد ببغداد فاقتيدوا
إليه فى « الرقة » على ضفة الفرات الشرقية فى شمال غربى الجزيرة . . وكان يستحب الإقامة
فيها ، فعمر بها داراً للملك واتخذها قاعدة للهجوم على الروم ، يغزوهم فى البحر
الأسود ، والبحر الأبيض ، وجزيرتى قبرص ورودس . ذلك مكان المحاكمة .

أما زمانها فسته ١٨٤ ، سنة جهاد للرشيد كسائر سنواته . فيها أحمد قن الخارجين
بخراسان . واستأمنوه فآمنهم . وفيها سير أحمد بن هرون الشيبانى إلى ممالك الروم فغنم وسلم . .
وقيل كادت نفسه تذهب حشرات على أكبر أولاده أحمد . . كان قد ترك الدنيا وتزهد .
يعمل بالأجرة ليعول نفسه ولا يدرى به أحد . . حتى مات ولا يعلم به أحد .

أما الشهود : فإلى جوار الرشيد ، يجلس قاض سيخلد اسمه وعلمه أكثر مما
خلد الرشيد : محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة الذى أصبح فقيه الدولة
الأول بعد إذ مات أبو يوسف منذ عامين . وهما المعروفان فى التاريخ بأنهما « الصاحبان »
للإمام الأعظم « أبى حنيفة النعمان » .

تولى أبو يوسف رئاسة القضاء ، وكان يؤم الرشيد ويعلمه ويحج معه على بعير واحد ،
ويدخل عليه راكباً بغلته — ويقول الرشيد متعجباً : هاتوا لى مثله . . ولا مات قدرت

ثروته بمليونين . أما محمد فلم يكن من المال أو السلطان مثل أبي يوسف . كان أبو يوسف إذ هو شاب يستعين على الدهر بصرر يمنحه إياها أبو حنيفة ، في حين جاء محمد إلى حلقة أبي حنيفة ، ففى وضاء الحيا كأن جبينه من العاج ، تقدر ثروته بثلاثين ألفاً ، أنفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ليتعلم . فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو فى كتب خالدة ، ولما علم الرشيد بكتابه « السير » بعث أولاده لسماع دروسه فيه .

وذاث يوم أقبل الرشيد على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشيد ثم جاء الآذن يطلبه فوجبت القلوب . فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس قال : كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها . إنك أهلتنى للعلم . فكهرت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه . وإن ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار .

رضى الرشيد بمحمد تكريماً للعلم مثلما جلس محمد تكريماً له . وكلا الموقفين كرما الرشيد وصاحب أبي حنيفة .

ذلك هو القاضى الذى سيمسى شاهد المحاكمة .

سيق محمد بن إدريس الشافعى فى أقياده مع تسعة من العلويين ، رجلا رجلا فى الرابعة والثلاثين ، مضبوط الكلمات ، وكما سيوصف لبعض ملوك الشام فيما بعد - مقتصداً فى لباسه ، طويلا ، سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، طويل القصب ، أسمر حسن السميت ، عظيم العقل ، حسن الوجه حسن الخلق ، مهيباً فصيحاً ، من أذرب الناس لساناً . إذا أخرج لسانه بلغ أنفه .

وروى الشافعى حديث المحاكمة قال :

« وضربت أعناقهم واحداً واحداً إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة وأنا .

فقال للعلوى : أنت الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة !

فقال العلوى : لن أدعى ذلك أو أقوله . فأمر بضرب عنقه .

قال العلوى : إن كان لا بد من ضرب عنقى فأنظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة ،

فهى عجوز لم تعرف بخبرى ؛ فأمر بقتله فقتل .

هكذا ادأرك الرجال التسعة صرعى دون رحمة ، حتى الحدث الذى يعلن

التوب ويستغفر للذنب ، فيعد بأن لا يقول شيئاً مما أخذ عليه . مما قد يشير إلى أنه لا ينفي عن الماضي . وكل همه أن يكتب لأمه .

أما الآخرون فربما سقط في أيديهم ولم يجيبوا بطائل أو كانوا معترفين مفاخرين . فما تزال اليمن إلى اليوم من معاقل الشيعة .

ويستطرد الشافعي فيقول « . . ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لي مثل ما قال للفتى . فقلت يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي . وإنما أدخلت في القوم بغياً على . وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي . ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه . والقاضي يعرف ذلك » .

واستطرد يضيف « وأنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن السائب بن ... ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف » .

فقال له : « أنت محمد بن إدريس ؟ ما ذكرك لي محمد بن الحسن ، ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ما يقول هذا — هو كما يقوله ؟

قال محمد بن الحسن : بلى ، وله من العلم محل كبير . وليس الذي رفع عليه من شأنه . قال : فخذه حتى أنظر في أمره .

فأخذني محمد . فكان سبب خلاصتي لما أراد عز وجل منه » .

وفي رواية شارحة روي أنه قال : يا أمير المؤمنين أودع من يقول إنني ابن عمه إلى من يقول إنني عبده ! قاصداً أن التهمة ليست مقبولة عقلاً ، إذا الرشيد من بني هاشم بن عبد مناف ، والشافعي من بني المطلب بن عبد مناف ، أخى هاشم — فهو لا يدع ابن عمه الرشيد . في حين أن إمام الشيعة يقول إن قريشاً عبيد للعلويين ولا يقبل الحر أن يسترق .. فلا يدع من يقول إنه ابن عمه إلى من يقول إنه عبده .

شهد الشافعي مصارع الرجال التسعة تنهاوى رؤوسهم واحداً إثر واحد . ولم يكن رجل حرب ، قطع الرؤوس من مألوف عاداته . بل كان لكل رأس تنطابير مشهد من مشاهد الروع قدر له أن يكون من حضّاره ، فما أقرب أن يخال نفسه من ضحاياها ! حتى إذا طار رأس التاسع فصار أشلاء ، على عين الشافعي ، كان هو في أعقابه . . والعبرة لا تتم إلا بقتله . فتمام القتل مطلوب ومنتظر .

تقدم الشافعى فصار فى مواجهة الرشيد ، بعد كل ما رأى المتهم ، وكل ما صنع الخليفة . فلم يفقد اتزانه فزعاً أو غضباً أو يأساً . بل قدر الأمور بمقاديرها ، لا أقل ولا أكثر . فلم يتدخل عن رباطة جأشه أو يعزب رأيه أو تزايله البلاغة التى أنعم بها الله عليه . فبده قاضيه بروعة دفاعه ، كما سبقه شاهد نفيه إلى مجلس المحاكمة .

وكان رجل خيل ، يعرف الوثبات الموفقة إلى الغاية المرتجاة ، ويدرك التوازن فوق الصهوة أو فى الممعة .

وكان رامياً لا يُشوى . علمته الرماية . أنه لا يصيب الهدف إلا بالتحكم فى أعصابه وأقواسه وسرعة خاطره .

وكان رجل كفاح ونضو أسفار ، قد طالما شقت به النجائب أديم الصحراء منذ شهوره الأولى . من شمال الجزيرة إلى غربها حيث البيت العتيق ، وطواها فى شبابه مرات ومرات من مكة وإلى مكة ذهاباً وحيث ، وطواها من الشرق إلى الغرب وإلى الجنوب فى اليمن .

وكان من هامة قريش كالرشيد . بل كان ابن عم النبي ذاته . . . وكان فى عنفوان الفتوة والقوة لا يصغر الخليفة إلا بعام واحد . قطع مسافة العمر كلها فى القرآن والسنة فهو أكثر الناس عزة بالعلم ، وبقدرته على البيان . وهو مسئول عن الصدع بالحق ، والظفر به . فما بالك إذا كان الدفاع بهذا كله واجباً عليه لنفسه .

كل أولئك أسباب تجعله يقف على الرأس هادئ النفس ، إذ يقف فى عين الردى ، والردى يقظان يتوثب — فيلجأ إلى لسانه القوى وبيانه الذى لا يدفع ، غير هيباب ، ولا متردد . . .

ولقد يقال مصادفة أن يحيى عاشر أقرانه . وقد يقال إن المصادفة الكبرى هى وجود محمد بن الحسن قاضى الرقة فى جوار الرشيد . وقد تكون فى الأمر صدفتان أو تدبيران تلاقيا على أن يحيى فى آخر القوم ليخلو له وجه الرشيد ، وتسعفه آيات البلاغة والخاطر الوقاد المسارع .

وقد يفيد فى المعنى الأخير أن سأله الرشيد : أنت محمد بن إدريس . . . لكن المؤكد أن كرة الأرض تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها ، وأن كرة الأرض بتمامها جرم صغير من أجرام كون كبير تمسكه يد العزيز الحكيم .

والذى ليست فيه مصادفة أن يفرخ روع المتهم بحضور القاضى فى مجلس الرشيد ،